

نحو بلدان المغرب العربي وظروف ملابساتها من خلال "نفح الطيب"⁽¹⁾.

ولد أحمد المقرئ ونشأ وتثقف في تلمسان (986هـ - 1578م)، وقد ظل وفيّاً لهذا التكوين الأصلي حتى وهو يتمتع بالجاء والحظوة في القاهرة ودمشق، وكانت مصادره تعتمد أساساً على الروايات، ومعارفه كشاهد عيان لما وقع في الأندلس في حياته أو ما أخذ من الجيل الذي سبقه من أهل الأندلس المظرودين⁽²⁾. ومن الواضح أن إنتاج المقرئ غزير وحياته خصبة وتأثيره كبير، وكان يذكر محاسن تلمسان وجمالها وهو في المغرب والمشرق وكان يقارنها بفاس ودمشق. وتؤكد بعض الدراسات أن الفتن التي عاشتها الجزائر في بداية العهد العثماني هي السبب في هجرة المقرئ نهائياً من تلمسان إلى فاس⁽³⁾. وأوجب المقام في هذا الصدد أن الوطن كان دائماً في ذاكرة المقرئ وهو ما أشار إليه في هذين البيتين:

بلد الجدار⁽⁴⁾ ما أمر نواها كلف الفؤاد بحبّها وهواها.
يا عاذلي في حبّها كن عاذري يكفيك منها ماؤها وهواها⁽⁵⁾.

ويمتاز المقرئ بمعاصرته للأحداث (986 - 1041هـ / 1578 - 1631م)، إذ عاش في نهاية القرن السادس عشر، وبداية القرن السابع عشر الميلادي، مما سمح له بمعاصرة الأحداث التي تحدث عنها، خصوصاً المتعلق منها بالأندلس. إن المعلومات التي احتوت عليها مصادر المقرئ، تقدم لنا إطاراً جديداً حول إثارة موضوع نداءات الاستغاثة الموجهة إلى السلطات العثمانية بعد سقوط غرناطة (1492م). ومن جهة أخرى منحنا "أزهار الرياض" معلومات مفيدة حول ظروف الهجرة الأندلسية في اتجاه بلدان المغرب العربي ومواقف الأهالي من ذلك.

أولاً: نداء الاستغاثة الشعري:

لقد حفظ لنا المقرئ القصيدة الشهيرة التي وجهها الأندلسيون إلى الدولة العثمانية في شخص سلطانها بيازيد الثاني (886 - 918هـ / 1481 - 1512م)، وهي قصيدة يستصرخ فيها صاحبها السلطان العثماني، ويستغيث به لنصرة إخوانه الذين أكرهوا على التنصر⁽⁶⁾، ويصف له ما تنزله إسبانيا المسيحية برعاياها الجدد وما يصيبهم من تعسف ديوان محاكم التفتيش.

(1) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 4، ص 528.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 221 - 223.

(3) لقد كثرت هجرة علماء تلمسان إلى المغرب خلال فترة المقرئ، وأشار إليها ابن مرزم في كتابه: البستان، وابن سليمان في كتابه:

كعبة الطائفيين.

(4) بلد الجدار هي تلمسان.

(5) أزهار الرياض، ج 1، ص 6.

(6) الدراسات الموريسكية في الخمس والعشرين سنة الأخيرة في إسبانيا، ص 25 - 27.

ومن المرجح أن هذه الرسالة أو القصيدة، وجهت بعد انتفاضة البشارات (1501م)، وما تلاها من إجراءات القمع ضد العرب المتتصرين، وذلك حوالي سنة 1505م، وهي تلخص وضعاً آل إليه المسلمون في الأندلس بعد سقوطها بيد المسيحيين عام 1492م⁽¹⁾. لقد كان سقوط غرناطة (1492م) نهاية للحضارة العربية الإسلامية بالأندلس، وانتصاراً للحضارة الغربية المسيحية، فالإسبان جعلوا من سقوط الأندلس مؤشراً لحركة الاسترداد، وتوحيد إسبانيا دينياً وجغرافياً. وقد تضمنت بنود معاهدة تسليم غرناطة حقوقاً وامتيازات للمسلمين، سرعان ما تحولت إلى سياسة قمعية وخرق للاتفاقية المبرمة بين الطرفين الإسلامي والمسيحي، فاستهدفت تنصير وتهجير العناصر الإسلامية قسراً من غرناطة⁽²⁾. إليك بعض ما ورد في تلك القصيدة المؤثرة في وصف أنواع الاضطهاد والتعسف الذي نزل بالموريسكيين، بعد ديباجة نثرية قصيرة وديباجة شعرية طويلة في تحية السلطان العثماني بايزيد:

سَلامٌ كَرِيمٌ دَائِمٌ مُتَجَدِّدٌ
سَلامٌ عَلَى مَوْلَانَا ذِي الْمَجْدِ وَالْعُلَى
سَلامٌ عَلَيْكُمْ مِنْ عَبِيدٍ تَخَلَّفُوا

أَخَصَ بِهِ مَوْلَانَا خَيْرَ خَلِيفَةٍ
وَمَنْ أَلْبَسَ الْكُفَّارَ ثَوْبَ الْمَذَلَّةِ
بِأَنْدَلُسٍ بِالْغَرْبِ مِنْ أَرْضِ غَرْبَةٍ⁽³⁾

وانطلاقاً من هذه الأدبيات يبدأ مشهد المأساة الموريسكية من مختلف الجوانب الإنسانية والحضارية والثقافية، فمن خلال المادة الشعرية التي بين أيدينا، يمكننا حصر هذه المأساة من خلال ثلاث مراحل كبرى⁽⁴⁾:

1. التنصير القسري:

تؤكد الوثائق المكتشفة في أرصدة محاكم التفتيش أن الإنسان لم يحترموا بنود معاهدة تسليم غرناطة، وحاربوا كل ما هو غير كاثوليكي، ووزعت محاكم التفتيش بياناً كاشفاً عن مظاهر أتباع الدين الإسلامي للوشاية بالمسلمين. وقد تسبب هذا البيان في محاكمة الآلاف من المتهمين الذين وقعوا في فخ الوشاية والحقد والانتقام، وحكم على الباقيين بالسجن والجلد والاسترقاق والتجهير⁽⁵⁾.

(1) ثورة مسلمي غرناطة عام 976 هو أواخر عام 1568 والدولة العثمانية، ص 346 - 347. وأيضاً: نهاية الأناطلس وتاريخ العرب المتقصرين، ص 346 - 347.

— يلاحظ أن انتفاضة (1501م) قد تسببت في اتخاذ قرارات تعميلا ودمج الموريسكيين.
(2) محنة العرب في إسبانيا، ص 107 — 116.

وأيضاً: وتذكروا من الأندلس الإبادة، ص 107 - 116.
(3) ازهار، ج 1، ص 109.

⁽⁴⁾ *Les Morisques dans la poésie Andalous*, Tl, pp. 171- 180

(5) الموريسكيون الأنطالسيون والمسيحيون والمجاهدة الجبلية، ص 114-115.

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة.
وخان عهوداً كان قد غرنا بها ونصرنا كُرْهاً بعنف وسطوة.
غُدرنا ونَصَرنا وبُدل ديننا ظلمنا وعُوملنا بكل قبيحة⁽¹⁾

كان الأندلسيون بين رحى التعذيب والهجرة قبل فرض سياسة التنصير وحيث وجب ألا يغيب عنا أن الدين قد أثر على فكر الإسبان وسلوكهم خلال القرن السادس عشر. وعليه فإن التعصب الديني كان قابلاً في سياسة ملوك إسبانيا إذ تولد عنه الخوف المستمر من بقاء المسلمين بإسبانيا وتواصل الفتوحات العثمانية في شرق أوروبا، لهذا لجأت الحكومة الإسبانية إلى تعميم الإرغام على التنصير، والواقع أن النصوص الشعرية صورت مختلف الواجهات لسياسة التنصير:

أ - الاحتفال بالشعائر الدينية:

كان لزاماً على الموريسكيين حضور مختلف الطقوس المسيحية، وإلا تعرضوا لمصادرة أملاكهم أو السجن وهذا ما سجلته الأبيات:

ومن لم يجي منا لموضع كفرهم يعاقبه اللبائط شر العقوبة
ويلطم خديه ويأخذ ماله ويجعله في السجن في سوء حالة⁽²⁾

وللسير قدماً في تطبيق سياسة الاندماج، قررت السلطات الإسبانية تحت إشراف الأساقفة، أن كل الموريسكيين يجب عليهم تلقي مراسيم دفن كنسي وأنه يتحتم عليهم دفن موتاهم في نفس مقابر المسيحيين:

ومن جاءه الموت ولم يحضر الذي يُذكرهم لم يدفنوه بحيلة.
ويترك في زبل طريقاً مجلداً كمثّل حمار ميت أو بهيمة⁽³⁾

وقد لاحق المورسكيين رجال الكنيسة وأعوان محاكم التفتيش على الصلاة والصوم، ومنعواهم من تأدية الشعائر الإسلامية:

ومن صام أو صلى ويعلم حاله ففي النار يلقوه على كل حالة.

⁽¹⁾ أزهار، ج 1، ص 113.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ج 1، ص 112.

⁽³⁾ أزهار، ج 1، ص 112.

وفي رمضان يفسدون صيامنا بأكل ورب مرة بعد مرة⁽¹⁾.

وظل الموريسكي متسكعاً بعبادته، وهو في السجن وتحت وطأة التعذيب وسيتحول هذا الشعور إلى حقد المسيحيين على الموريسكيين، وبتطور بشكل سريع لينتقل من حقد ديني إلى حقد عام وشامل لجميع التقاليد والعادات الموريسكية.

بـ - التقاليد والعادات:

أجبر المسيحيون المرأة الموريسكية على التبرج وأكل الخنزير والجيفة وبالاختلاط مع الأجانب بالإضافة إلى عدم التلطف باسم النبي محمد عليه الصلاة والسلام بل بشتمه أيضاً وهذا ما يوضحه البيت التالي:

وقد أمرونا أن نسب نبينا
ولا نذكره في رخاء ولا شدة⁽²⁾

2. الإقصاء الحضاري:

تميزت هذه المرحلة بقيام الموريسكيين بعشرات الثورات ضد التعسف، فكانت نتيجة السياسة اندلاع ثورة في حي البيازين بغرناطة عام 1502م⁽³⁾. ومما لا شك فيه فإن الملكين الكاثوليكين (إيزابيلا وفرديناند: 1474 – 1516م) كانا على اتفاق مع رجال الدين على أعمال التصدير القسري. فقد كان هؤلاء يؤمنون بأن وحدة العقيدة والروح هي الأساس الأول الذي يمكنه من توحيد إسبانيا المجرأة، وتمسك المسلمين بدينهم يقوي أواصر الصلة بينهم وبين إخوانهم بالمغرب وفي العالم الإسلامي، ولاسيما مع الدولة العثمانية، ومن ثم فإن تصدير المسلمين أو إخراجهم هو الضمان الوحيد لسلامة إسبانيا ووحدةها⁽⁴⁾. وقد واكب هذه السياسة أن اقتلعت إسبانيا جذور الموريسكيين التاريخية من الناحية الدينية والثقافية والاجتماعية:

أ - الناحية الدينية:

تعمقت روح الكراهية عندما أصدرت السلطات الأوامر بحرق المصاحف والآلاف من الكتب العربية الحاملة للعلوم والثقافات والتي قدرها المؤرخون بعشرات الألوف⁽⁵⁾. وكان الهدف من وراء هذه العمليات الإقصائية هو طمس معالم الحضارة العربية الإسلامية بالأندلس وفي هذا السياق تشير القصيدة:

(1)

(2) ضمیمہ .

(3) نورة مسلمی غرناطة، ص 119.

⁽⁴⁾ *La méditerranée et monde méditerranéen à l'époque de philippe II. T2, p.577.*

(5) كفاية الأندلس، ص 346.

وخلطها بالزبل أو بالنجاسة

وأحرق ما كانت لنا من مصاحف

بجـ - الناحية الثقافية:

انقد تم القضاء على الموروث الحضاري الإسلامي الذي خلده الأندلس عبر الأجيال زهاء

ثمانية قرون، حيث تشير القصيدة إلى ذلك صراحة:

ولا مصحفاً يخلى به للقراءة⁽¹⁾

وَلَمْ يَتْرَكُوا فِيهَا كِتَابًا لِمُسْلِمٍ

ج - الناحية الاجتماعية:

منعت السلطات الإسبانية الموريسكيين من ارتداء الملابس العربية وأجبرتهم على تغيير

أسمائهم العربية الإسلامية إلى أخرى إسبانية مسيحية.

بغير رضا منّا وغير إرادة⁽²⁾.

وقد بدلت أسماؤنا وتحولت

وبإلحاح من البابا بروما أصدر ملك إسبانيا فيليب الثاني (1556 – 1598م) قرارات ذات

تدابير صارمة في حق الموريسكيين منها توصيات اقترحها رجال الكنيسة يمكننا إجمالها في النقاط

التالية:

— منع استعمال الألبسة العربية.

— إجبار الموريسكيين على ترك أبواب بيوتهم مفتوحة أيام الجمعة والأعياد.

— يمنع النساء من التنظيف ودخول الحمامات.

— يمنع على المرأة الزواج طبقاً لمبادئ الشريعة الإسلامية.

— منع الآباء من تلقين أبنائهم الشعائر الإسلامية.

— إجبار الأطفال على حضور الحفلات الدينية المسيحية في الكنائس⁽³⁾.

وقد تعرض الموريستكيون الذين كانوا يعيشون في مختلف مناطق الأندلس إلى إبادة جماعية

وهذا حسب ما ورد في القصيدة:

بغير رضا منا وغير إرادة⁽⁴⁾

وقد بدلت أسماؤنا وتحولت

and (1)

and (2)

(3) الموريسكيون الأندلسيون، ص 43.

and (4)

فسل وحرا عن أهلها كيف أصبحوا
وسل بنفياً⁽¹⁾ عن قضية أمرها
ومنيقة⁽³⁾ بالسيف مزق أهلها
والدرش بالنار أحرق أهلها
أسارى وقتلى تحت ذل مهانة.
لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة.
كذا فعلوا أيضاً بأهل البشارة⁽²⁾
بجامعهم⁽⁴⁾ صاروا جميعاً كفحة⁽⁵⁾

3. الطرد:

ومن المعروف أن ترتيبات إقصاء الموريسكيين من إسبانيا وطردهم كان من أسبابه الجوهرية المقاومة المستمرة التي أبدوها المسلمون في الأندلس طوال خمسة أجيال (1492 – 1609م)، لذلك أصدر فيليب الثالث (1598 – 1621م) بتاريخ 22 جمادى الثانية 1018هـ الموافق لـ 22 سبتمبر 1609م، مرسوماً ملكياً يقضي بطرد جميع الموريسكيين. وجاء تبرير الملك حول هذا الطرد "... لقد حاولت منذ سنين طويلة تنصير موريسكيي هذه المملكة وإصداري لقرارات العفو المتتالية في شأنهم وساعدني رجال الدين في تحويلهم إلى ديانتنا المقدسة لكنهم أصروا على التمسك بدينهم..."⁽⁶⁾.

ويتبين لنا عند دراسة بداية المأساة الموريسكية أن نداءات الاستغاثة بدأت بمراسلات مسلمي غرناطة للسلطات العثمانية ومطالبة بيازيد الثاني التدخل لدى البابا بروما، ومطالبة الإسبان باحترام حرية الأديان بمثل ما يحظى به الرعايا المسيحيون في البلاد الإسلامية ومن جهة ثانية السماح لهم بالهجرة وهذا تحدده الأبيات التالية:

فسل بابهم أعني المقيم برومة
وما لهم مالوا علينا بغدرهم
وقد بلغ المكتوب منكم إليهم
بماذا أجازوا الغدر بعد أمانة.
بغير أذى منا وغير جريمة.
فلم يعلموا منه جميعاً بكلمة⁽⁷⁾.

(1) قلعة بالمرية، أنظر: أزهار، ج1، ص41.

(2) *Les Morisques*, P177.

(3) البشارات جبار بمنطقة غرناطة.

(4) المصادر التاريخية العربية والمسيحية تؤكد على مثل هذه الجرائم والمثلة في المقابر الجماعية المكتشفة في إسبانيا في سنة 1980 وهي تؤكد على صدق هذه الأبيات وكأنها ليست من نسج خيال البشري.

(5) أزهار، ج1، ص112.

(6) *Los Moriscos*, pp. 251-1254.

(7) أزهار، ج1، ص113 – 114.

184

المهاجرين الأندلسيين عما ارتكبه قبيلة (هبرة) بميناء أرزيو من تعذيب وقتل حتى أن هبرة بطشت بالأندلس: "... يبقرون بطونهم لما يظنون من ابتلاع جواهر..."⁽¹⁾. مما دفع بالشيخ محمد أقدار التوجيبي الذي استنهض الشيخ أحميدة العبد وحته على أن يغزو بعشائر سويد على قبيلة هبرة (بين المحمدية وسيق)⁽²⁾. هذه الرواية فيها نوع من التزييف للحقائق والإفراط في المبالغة، فسوء المعاملة يمكن تخيله (وحتى قبوله)، لكنه يستبعد العمل الشنيع السالف الذكر صدوره من قبائل متحضرة، وعلى علم بإخوان لهم في الدين، ونظراً لما كان يتمتع به الأندلسيون من رغد ورفاهية في العيش قبل مرحلة سقوط غرناطة.

إن بعض الرواة الغربيين والمغاربة مجمعون على أن بعض الموانئ والمدن بالمغرب العربي قد أساءت استقبال الموريسكيين، وخاصة في وهران وتلمسان حيث قام البدو بسلبهم وقتلهم. وقد كتب المؤرخ الإنجليزي شارل لي (Lea) حول هذا الموضوع: "لم يكن مسلمو تطوان متسامحين... وقد أضيفت إلى الموريسكيين مأساة جديدة وهذا إلى درجة أن لم يكونوا فرحين ليعلموا أن هناك موريسكيين مسيحيين ثابتين في دينهم وقد رجموا أو قتلوا، وهذا نتيجة رفضهم دخول المساجد، وفي البلاد المغاربية وكقاعدة عامة، كانت آلام المهاجرين شنيعة جداً. وعندما نزلوا بوهران سعوا لتبني خطة إنشاء دولة موريسكية... ولا شك أن الموريسكيين لم يكونوا يدركون الوضعية العامة، إلى أن عاينوا بأنفسهم كره العرب البدو لهم، وأنهم لا يرغبون الآن إلا في الرجوع إلى إسبانيا ليموتوا مسيحيين..."⁽³⁾.

ولعل الصورة تبدو أكثر وضوحاً إذا حاولنا رصد ما كتبه المقرئ في "فتح الطيب" حيث لم يشر إلى عملية بقر البطون والتقتيل، بل ذكر: "... فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم، وهذا ببلاد تلمسان وفاس، ونجا القليل من هذه المعرة..."⁽⁴⁾ ويفهم من سياق هذه الرواية أن الموريسكيين لا قوا على أيدي إخوانهم بمنطقة تلمسان وفاس سوء المعاملة والمعاناة لا غير.

ومهما يكن من انتقادات لهذه الروايات، فإن بعض الباحثين المعاصرين تبنوا مثل هذه المواقف بهذه الفترة الحرجة، محللين إياها بشكل غير متوازن، وهو الأمر الذي جعلهم يركزون على الطابع غير الإنساني والسلبى لمواقف بعض الطبقات الاجتماعية للأهالي⁽⁵⁾. هذه الوضعية الناجمة عن الفوضى الإدارية والسياسية للمغرب، كونها ظاهرة تاريخية قديمة، والمتمثلة في الصراع القلبي ونهب الأملاك لم يستطع النظام العسكري العثماني القضاء عليها، على أساس أن الجزائر كانت دار

(1) عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ص 85.

(2) انظر الجمالي، ص 27 - 28.

(3) العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة، ص 212.

(4) فتح الطيب، ج 4، ص 528.

(5) Historia de los Moriscos, pp. 2225 J 245.

جهاد ومحور صراع دائم مع القوى المسيحية في المنطقة⁽¹⁾.

وإذا كان بدو وهران وتلمسان قد نهبوا أو سرقوا أملاك وثروات الموريسكيين الذين حلوا بالساحل الغربي للجزائر، دون أن يقع القصاص عليهم، فهذا غير معقول لأن الأهالي لم يكونوا على علم بمأساة الموريسكيين السياسية والدينية، وعلى الخصوص حول نتائج طردهم من الأندلس، بل تم نهب هؤلاء الموريسكيين بسبب مظاهر الثراء البادية عليهم. ومن هذا المنطق تطرح التساؤلات التالية:

— هل كانت السلطات تعلم بما ارتكبه البدو في حق الموريسكيين؟

— وهل كان هؤلاء واعين بعملية النهب والسلب التي مارسوها تجاه هؤلاء الموريسكيين الذين التجأوا إلى الساحل المغربي لالتماس الأمن والحماية؟

لكي نموقع هذين الحداث الهامين في هذه الدراسة، فإن قصيدة الاستغاثة المدونة في أزمهار الرياض جاءت لتخليد الموريكيين في الشعر الأندلسي وهو في لحظات الاحتضار الأخيرة. فهذه الأبيات الشعرية تتم بالرغم من ركاكتها عن دقة مدهشة، في تتبع أعمال السياسية الإسبانية بمطاردة العرب المتصّرين وفيها إجراءات القمع من لدن محاكم التفتيش وعقوباتها. والظاهر أن صاحب القصيدة كان من الكبراء المتضلعين بالشؤون العامة زمنئذ.

وعليه فإن المعطيات التي ذكرها المقري في نفح الطيب بخصوص الهجرة الأندلسية الأخيرة، لا تترجم في الواقع إلا على مظهر من تفاصيل سوء المعاملة التي تعرض لها المهاجرون. ولا شك أن المعلومات التي أوردها المقري من شأنها أن تساعدنا على فهم نفسية المهاجرين وموقف الأهالي والسلطات من عمليات السلب والنهب التي مورست في حق المورييسكيين⁽²⁾.



المصادر والمراجع

- (1) - أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، أحمد المقري، القاهرة، 1939.
 (2) - نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد المقري، (تحقيق: إسمان عباس)، بيروت: دار صادر 1968.
 (3) - "الدراسات الموريسكية في الخمس والعشرين سنة الأخيرة في إسبانيا" في أعمال المؤتمر العالمي السادس للدراسات الموريسكية الأندلسية، (جمع وتقديم: عبد الجليل التميمي) ز غوان، سبتمبر 1995.

(¹) تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 141.

(2) الموريسكيون في المغرب الأوسط، ص 113 - 149.

- 188